



بعد أن أُسِّيَ الستار على الانتخابات التركية الأخيرة، وما حملته في طياتها من معانٍ ودللات، وما صاحبها من شدٌ واحتدامٌ، ثم ما أسفرت عنه من فوز مريح للمشروع التركي الناهض بقيادة حزب العدالة والتنمية وزعيمه المميز رجب طيب أردوغان، فإن مما يلفت النظر أن بعض المثقفين والمفكرين الإسلاميين من المتابعين للشأن العام أكثرَ ما استجلاه من هذه الجولة الانتخابية هو تججيل الديمقراطية، والإغراق في التغني بها، والتأكيد على أنها الحلُ الناجع والشفاء النافع لكل داءٍ من أدواء الأمة التي تعيشها، وأنها المخرج من كل سوء.

ولست هنا بقصد تحليل المقصود بالديمقراطية أو بيان مفهومها وفلسفتها وخلفياتها، ولا بقصد الدخول في سجالات ما بين نابذٍ لها وصادٍ عنها، وبين مفتتنٍ بهواها ومتّمٍ بمحاسنها. ولكنني بقصد تحليل تلك النظرة القاصرة والتبني عليهما، فهي أشبه ما تكون بمن وقف أمام لوحة رائعة بدعة أجمع الناس على تميزها، فغاص هائماً في جمال إطارها المحيط بها، وأغرق مدحًا وثناءً عليها، وأفرغ جهده في التغنى بحسن تصميمه وصنته، واقتصر على ذلك فلا تراه وقف عند أصل اللوحة وجوهرها، ولا تذوق ما فيها من جمال أو أسرار أبدعتها ريشة مُتقنة فريدة حتى بلغت تلك اللوحة ما بلغت.

إن الذي جرى في تركيا ليس هو انتصار الديمقراطية في حقيقة الأمر، ولكن انتصار المشروع، المشروع الأصيل الذي تمسّك بهوية الأمة ووَفَّرَ ماضيها وتراثها، وانطلق إلى ميادين الحياة المعاصرة، ليربط القديم بالجديد، ويصلح بين الماضي والحاضر، ويقدم النموذج الأنسب والأكمل لنھضةٍ دنيويةٍ فَدَّ ذات أصول أخلاقية وإيمانية ودينية واضحة، لا ينكرها إلا من رانت على بصره غشاوة أو قبع خلف نظارة سوداء في وقت السَّحر!

إنه انتصار المشروع الحقيقي الذي وجد في نفوس الناس تعطشاً وحاجة، وهذا المشروع هو من يَسْتحق الثناء والمديح،

ويستحق أن يتداعى عليه العقلاء ليتدارسوه ويحللوه، ويأخذوا منه العبر والدروس في أدق تفاصيله ومراحل تجربته الطويلة؛ بل أن يدرسوا أيضاً بعض جوانب الخلل فيه لتسندر وتفهم، فيزداد المشروع قوّة إلى قوّته، ويكتمل نضجاً ورشداً على هو عليه اليوم.

أما الديمقراطية فهي في الواقع الأداة والوسيلة، وهي أداة صماء ووسيلة مصممة إن قصيده منها حرية الانتخاب والاختيار للحاكم، وليس بمحلٍ لمدح أو ذمٍ إلا من حيث إنها وسيلة وأداة، فهي إن أوصلت مشروعًا حضارياً طيباً تعليق به القلوب والعيون، فقد أوصلت في أماكن أخرى وأزمان أخرى ما هو خلاف ذلك، بل على نقشه والتضاد معه.

فقد أوصلت الديمقراطية هتلر وغيره إلى سدة الحكم فكان حكمهم وبالاً، ورفعت أخيراً ترمب على عرش أقوى دول العالم، فجعل يتلاعب بالعالم كله (حلفائه وخصومه على السواء) صباح مساء، فلا يستطيع أحد أن يفهم لهم استراتيجية ولا خطأ واضحاً ينهجه.

وكذلك من الأمثلة المعاصرة القريبة جداً الحالة الماليزية، حيث أفرزت الديمقراطية حاكماً فاسداً حصل الأصوات اللازمة للحكم، ثم شرع يفرغ في جيوبه ما زرعته تلك النهضة الناشئة في سنواتها السابقة، حتى قدر له أن يسقط بعودة الكاريزما المؤسسة، صاحبة المشروع الحقيقي محل الثقة والنظرة والفكر الحضاري البناء.

ربما سينبادر بعضُ من يقرأ هذا الكلام إلى الزج بي في خانة العداء للديمقراطية، وتصنيفي من محبي الاستبداد والطغاة، والمسبحين بحمد الشمولية والديكتاتورية، فإن وصل قارئ إلى هذا حقاً فإني أقول له: حنانيك حنانيك، ومهلك مهلك، فلست كذلك قط.

لا شك أن أكبر مشكلة تواجه البلاد العاشرة والمتأخرة هو غرقها في آتون الاستبداد، وانعدام الحرية الفردية والجماعية، وموت الحركة الطبيعية للجماعة الإنسانية فيها مع غياب مؤسسات المجتمع الأهلي، كل هذا بسبب عجز الناس عن قول كلمتهم بحرية، وعجزهم عن اختيار الأكفاء والأجدار ليتولى دفة القيادة.

ولا شك – والحالة هذه – أن أول شرط النهوض وضرورات المرحلة هو توفر الحرية والقدرة على اختيار الحاكم المصلح الكفاء، هذا أساس وضرورة لا يختلف فيها عاقلان، ولا يتمارى فيها ذوا لبٍ، لكنَّ السؤال المهم الذي هو بيت القصيد مما أرمي إليه ومما توحيه المناسبة: ثم مازا؟ فأن تكون حرية الإنسان في الاختيار والانتخاب ضرورة المرحلة، لا إشكال فيه البنت، بل هذا هو الأصل، وهو أبسط حقوقه المدنية والدينية والإنسانية، لكن أن تغدو تلك الضرورة غاية، وأن تصبح النهاية التي يشدوا إليها المفكرون والمنظرون والنخبة! فهذا هو القصور، وأيما قصور، وأن يعكف بعض الإسلاميين على التغنى بالديمقراطية، وبالديمقراطية فقط؛ فهذا – في نظري – ضرب من ضعف النظر غريب، ولو من عمى الألوان عجيب.

إننا إزاء هؤلاء كمن بلغ به العطشُ مبلغه، وأخذَ منه كلَّ مأخذ، ثم أتيح له بعد جهد جهيد ماءً عذبً صافٍ من صنبور لطيف المنظر جميلِ الشكلِ، فما أن شرب وارتوى حتى ارتدَ على الصنبور مادحاً وشاكرًا، وفي محسنه وخصائصه هائماً مُتعنِّياً، باذالاً له من أنواع الشكر والامتنان ما غيره أحقُ به منه، وهو ذلك الماء الصافي الذي رواه بعنوبيته ونقاؤته وبرودته، والذي أطفاً منه عطشاً قاتلاً، وظمماً مُشفيًّا.

صحيح أن الصنبور هو الأداة، وهو المسلك الذي نفذ منه الماء حتى وصله ورواه، لكنَّ الأداة هي الأداة، والوسيلة تبقى وسيلة ولا تنقلب غاية عند العقلاء، فالماء كان يمكن أن يصل ذلك الظامئ من نهر أو نبع أو سماء أو غيرها.. وكان الناس اصطلحوا على الصنابير منا حلل للمياه، وارتضوها وسيلة سهلة مريحة، وخادمة ميسرة، فلا حرج ولا ضير، ولكن ما نفعها

إنْ فُقدَ الماءُ الصافي، أو عَدَمَ الماءُ عذوبَتَهُ ونقاوَتَهُ فصارُ أَجاجاً؟

ولا يفوتنـي أخـيراً أن أقف عندـ من يقول رـادـاً وـمـعـضاً: إنـ مـن انتـصـروا فيـ الجـولات الـانتـخـابـيةـ وـهمـ أـصـحـابـ المـشـروعـ هـمـ أـنـفـسـهـمـ يـصـرـحـونـ بـأنـ الـديـمـقـراـطـيـةـ هيـ التـيـ اـنـتـصـرـتـ؛ وـأـقـولـ: شـتـانـ بـيـنـ الصـنـفـينـ، وـفـرـقـ كـبـيرـ بـيـنـ الـحـالـيـنـ، فـهـؤـلـاءـ فـاعـلـونـ سـيـاسـيـوـنـ، مـنـفـذـوـنـ عـلـىـ أـرـضـ الـوـاقـعـ وـمـباـشـرـوـنـ، وـهـمـ مـنـ يـتـلـقـيـ الصـدـمـاتـ وـيـعـالـجـ الـأـزـمـاتـ الـلـيـوـمـيـةـ وـالـمـشـكـلـاتـ الـعـوـيـصـةـ، وـمـنـ أـهـمـ مـكـتبـسـاتـ نـجـاحـهـمـ حـقـيقـةـ هوـ التـمـكـينـ الـحـرـ لـلـنـاسـ وـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ ذـلـكـ، فـحـقـ لـهـمـ أـنـ يـفـخـرـوـنـ بـهـذـاـ، وـأـنـ يـعـدـوـهـ مـنـ أـكـبـرـ إـنـجـازـاتـهـمـ، لـكـنـ مـاـ قـيـمـةـ هـذـاـ إـنـ فـشـلـ الـمـشـرـوـعـ وـتـوـلـيـ السـدـةـ مـنـ لـيـسـ بـكـفـءـ، أـفـسـنـشـكـرـ الـدـيـمـقـراـطـيـةـ عـنـدـهـاـ مـرـةـ ثـانـيـةـ، وـنـقـولـ لـلـنـاسـ: إـنـهـ اـنـتـصـرـتـ فـتـحـمـلـوـنـ فـكـلـ مـاـ تـأـتـيـ بـهـ هـوـ الـخـيـرـ؟

وـأـمـاـ الصـنـفـ الـذـيـ نـتـكـلـمـ عـنـهـ هـوـ صـنـفـ الـمـفـكـرـيـنـ وـالـنـخـبـيـيـنـ، الـذـينـ نـنـتـظـرـ مـنـهـمـ – وـتـنـتـظـرـ الـأـمـةـ – أـنـ لـاـ يـقـفـوـنـ عـنـ الـأـدـوـاتـ وـالـوـسـائـلـ، وـأـنـ لـاـ يـقـصـرـوـنـ عـلـىـ ضـرـورـاتـ الـمـراـحلـ، وـأـلـاـ تـشـغـلـهـمـ الـأـزـمـاتـ الـعـاـبـرـةـ، فـهـذـاـ لـيـسـ عـلـمـهـمـ بـلـ عـلـمـ الـسـيـاسـيـيـنـ الـمـنـخـرـطـيـنـ مـبـاـشـرـةـ مـنـ الصـنـفـ الـأـوـلـ، وـإـنـمـاـ دـوـرـهـمـ الـمـنـشـودـ أـنـ يـنـفـذـوـنـ إـلـىـ مـعـالـمـ الـمـشـرـوـعـ الـوـاعـدـ، وـأـنـ يـرـسـمـوـنـ لـنـاـ مـلـامـحـ طـرـيـقـ الـنـهـضـةـ الـمـرجـوـةـ، الـتـيـ تـرـفـعـ الـنـاسـ مـنـ بـؤـسـ الـوـاقـعـ وـظـلـمـتـهـ، وـتـأـخـذـ بـهـمـ إـلـىـ النـجـاحـ وـالـحـضـارـةـ، وـتـبـوـئـهـمـ مـكـانـتـهـمـ الـلـائـقـةـ بـهـمـ كـمـسـلـمـيـنـ بـيـنـ الـأـمـمـ.

المصادر:

مدونات الجزيرة